فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٩ — تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

— ٣ —

كانت أولى مآثر نيتشه اللامعة فى الفلسفة « نشأة المأساة » ، فهى المثل الأعلى الذى وجده فى البطل « ايشيل » والفيلسوف « شوپنهاور » والفنان « فاجنر » ، وفى أخريات أيامه جدّد نيتشه العهد لمثله الأعلى الذى تكرر فى « السوپرمان — الانسان الكامل » ، وبين هذين العصرين تمتد هاوية عميقة تفصل بين هاتين القمتين : عصر سلب ونقد مفرط . إن نيتشه قد عجل بالبناء وكأنى به قد شعر بأن مواد بنائه لم تكن صلبة بالمقدار الذى يجب أن تكون عليه . ألم يحس فى نشأته الأولى أن فى أصول « شوپنهاور وفاجنر » مالا يمت بأصوله ولا يلتقى مع فكرته ، فعمل على اقتلاع مالا يتصل به واستخلاص ما داخل فكرته مما لا يوائمها . وفى العصر الثانى رأيناه يقتفى سبيله الذى انتهجه فى البدء بعد أن حطم ما حطم من قيم فاسدة ونظم معفنة دون ما رأفة ولا شفقة . وبهذا انتقل من مرحلة السلب إلى مرحلة الاثبات ، واستبدل جرأة الناقد بذهول النبى . وكان من آثار ذلك العهد الأول « أشياء انسانية » و« آراء مختلفة » و« المسافر وظله » و« فجر » ، وكلها سطرت يوم كانت الحادثات تهد صحة نيتشه ، وكلها وليدة ذلك الحذر الأعمى من الوجود ، هذا الحذر الذى ولد الداء فى نفسه ، فالريح الذى يخفق حوله بارد قاتم ، ونيتشه يلوح كالهدّام العابث الذى زال من صدره عامل الاشفاق ، يعمل على تهديم أسوار الشرائع وتحطيم أبراج الأخلاق ، ففى كتابه « أشياء انسانية » يحارب التشاؤم ويسطو على معلمه « شوپنهاور » جاحداً مذهبه ، كافراً بتعاليمه ، لا يؤمن بأن الارادة شىء قائم بذاته ، نافياً القول بامكان « شىء يقوم بذاته » ، يقاتل عاطفة الرأفة والشفقة ، ويرذل فضيلة الزهد ، هذه الفضيلة التى تجرد الانسان من شخصيته وأنانيته ، وفى هذا الكتاب أصبح لا يرى غاية الانسانية توليد العبقرية كما جهر من قبل ؛ ولكنها بمجموعها تمشى ولا غاية تسعى اليها . وفى كتابه « المسافر وظله » ، يعلن ذلك الظل الذى يلحق الأشياء حين تشرق عليها شمس المعرفة ، ويعتقد بأن الأشياء لا تدرس واضحة جلية عندما يحدد دارسوها دراستها على ضوء المعرفة « المثالية » لأنه لا يبدو إذ ذاك من الاشياء إلا أجزاؤها المضيئة ، أما الأجزاء القاتمة فتبقى بعيدة عن نظر المجتلى ، وهكذا ينبغى للمفكر الحقيقى الذى يرغب بأن تكون له فكرة تامة عن الحقيقة أن يتأملها من وجهها الخفى . وفى كتابه « فجر » يخضع نيتشه لنقده مسألة « القيم والنظم الأخلاقية » التى يقدسها الناس ويحترمون قواعدها ، هو يرى أن الايمان بالواجب ليس بنظام سماوى ولا بتعليم أوحته السماء على البشر ، وليس هنالك قاعدة خالدة لتميز الخير من الشر ، وهذه الشريعة الأخلاقية التى تجبر الانسان على أن يكون صادقاً أمام نفسه فى كل شأن ، قد تنتهى بالاضمحلال ، فقد يغدو الانسان بالأخلاق ردىء الأخلاق ، كما يغدو بالدين زنديقاً ، لأن اخلاصه لعقله يزجيه إلى أن يقذف بنقده الأخلاق ذاتها ؛ وأن يكون فى ريب من نظمها

— ٤ —

والمثل الذى استخلصه نيتشه من الوجود أصبح يدنو الآن من المثل الواقعى ، فقد يرى أن كل كائن فى الثلاثين من أعوامه الأولى تتولد فيه حركة قد تحتاج الانسانية إلى ثلاثين ألف سنة لتحقيقها . الانسان الأول ينشأ فى حداثته مؤمناً متديناً ، ثم فاقداً لايمانه فى الله والخلود ، مأخوذاً بما يزين له العلم النظرى ، ثم يفقد العلم النظرى تأثيره ، حين يمسى لا يشبع نفسه ولا يكفى عقله . وفى النهاية تستيقظ فيه الروح العلمية فتقوده إلى دراسة التاريخ والطبيعة درساً صحيحاً . وفى انسان العلم وفى الروح الحر المفلت من كل وهم زائل والمنعتق من كل اعتقاد باطل ، فى هذا الانسان يرى نيتشه الانسانية المتسامية ، فالروح الحر هو متشائم يعتمد على عقله ، وهو مفتقر إلى صحة أدبية قوية لا غش فيها ،

تعمل على الحيلولة بينه وبين الاستسلام إلى اليأس والفناء ، وليس من السهل على الانسان أن يمزق عن جسده أثواب الخطأ الملتفة عليه فى كل جانب ليرى الحقيقة ماثلة أمام عينيه ، « فالحياة الانسانية غارقة بأكملها فى الأخطاء ، وليس فى استطاعة الفرد أن ينتشل نفسه من هذه الهاوية إذا لم يكن خصما قاسياً على ماضيه ، كثير السخرية من الأهواء التى تدفعنا إلى الايمان بالمستقبل وبالسعادة الآتية » ، وبهذا يستطيع إذا كان جريئاً صافى الطبع أن يجد فى العلم ما يعمل على استنقاذ روحه من اليأس ، فان المعرفة المبطنة بالتشاؤم تنقذه من السأم الذى يأكل قلوب سواد الناس . حتى إذا قدر أن يتحرر من كل ما يحترمه الناس زاده تمتعه بالأشياء طرباً وجمالاً ، فهو يهوى أن يحلق فوق الاضطراب البشرى لا يخفق قلبه رعباً فوق العادات والأوهام والعقائد ، هو يحيا لكى يفهم فهماً صحيحاً ، وإن أسمى مكافأة عنده هى أن يتفهم فى نفسه وفى غيره من الأكوان هذه النواميس الضرورية المتجلية فى حركات الكون ، وأن يستدل — كالنجم — على مستقبل الذرية البشرية

(وهل تعتقد بأن مثل هذه الحياة المتجلببة بمثل هذه الغاية باعثة للغناء خالية من اللذة ؟... إنك لم تدرك أن السحب الثقيلة ، سحب الأحزان هى أنداء ضخمة ترضع منها أفاويق عذبة حلوة ، لتقبل الشيخوخة فتفهم بنفسك كيف تلبى نداء الطبيعة ، نداء هذه الطبيعة التى توجه العالم إلى السرور . هذه الحياة التى تخذت الشيخوخة سنامها اتخذت الحكمة ذروتها . . . وهل الحكمة إلا ذلك الشعاع المنبثق من الفرح العقلى . . . الحكمة والشيخوخة عنصران نراهما على قمة طود واحد — هكذا شاءت الطبيعة — قد تقترب الساعة فلا تهتج ! ولتكن حركتك الأخيرة — حين يترا كم ضباب الموت — جهداً تبذله وتوقاناً نزاعاً إلى النور ، لتكن تنهداتك الأخيرة أنشودة انتصار الحكمة)

ومنذ عام ١٨٨٢ بدأت تتبدل لهجة نيتشه تبدلاً محسوساً على أنه ثابر على نضاله ومحاربته لعقائد جيله حتى النهاية . فكتبه الأخيرة إنما هى غارة شعواء ضد المسيحية وما تحمله من زهد وتقشف . ولكن هذه الصيحات التى يرسلها قوية عالية أصبح يمازجها قليل من الألحان العاطفية ؛ ألحان نشيد الانتصار

عاد نيتشه إلى صحته بعد أن قضى أيام علة وسأم ، يرتقب الموت فى كل فجر يتنفس ، وفى كل ليل يتمسس . عاد إليه رجاء جديد وتنفس جديد ، — والأرض أرحب بكثير من كفة الحابل . . . ! — يقول فى فاتحة كتابه « العلم الطرب » : (إن هذا الكتاب هو صيحة طرب بعد أيام طويلة مكفنة بالبؤس والعجز . هو أغنية مرح تتهادى فيها أصوات قوى بُعثت بعثاً جديداً ، وألحان إيمان واسع فى الغد وما بعده ، فى مستقبل مفتوح لى يحمل طيه حوادث قريبة ، ينطوى على بحار حرة وغابات جديدة تجذبنى نحو ما أستطيع أن أبلغه وأقدر أن أومن به) وهكذا تقشع من سماء نيتشه سحاب اليأس القاتم ، فبانت له سماء صافية مضيئة . ورحل الشتاء المتجمد وخفق قلب ربيع جديد .

وفى هذه الخطرات الجديدة التى هيمنت عليه عادة الشك فى قيمة ذلك الروح الحر الذى بشر به وجعل منه مثالاً عالياً . إن هذا الروح الحر عابس ينقصه روح الطرب ، قد جعل منه الألم كائناً كئيباً وهذا الروح لا يزال ثقيلاً لم يتعلم أن يرقص وأن يلعب ويفرح حراً طرباً ونائباً على أمواج الحياة ، إن هذه الفكرة خلقت لنيتشه خيالاً جديداً انطوى على الصورة الرائعة التى وجدها فى نبيه « زرادشت » هذا النبى الذى قضى فى الصحراء عشرة أعوام ، مرتاحاً لعزلته وفكرته ، ثم نزل إلى الناس يلقنهم الديانة الجديدة ، ديانة السوبرمان والعودة الخالدة ، وهو يجمع حوله فى مناراته المنعزلة نماذج متقاربة صافية للانسانية المتألهة السامية . إن رجال الرغبة الكبيرة والاحتقار الكبير والسأم الكبير ؛ هؤلاء الرجال يجب أن يفسحوا مكاناً للسوبرمان الذى يشفيهم من تشاؤمهم ويضىء لأعينهم آفاق المستقبل ، ثم يموت فى اللحظة التى يبلغ فيها أعلى ذروة الحكمة ، فى اللحظة التى تبلغ فيها شمس وجوده سمتها الأعلى فى الهاجرة الكبرى ، معلناً موته انتصار مذهبه

وقد رأينا توصلاً إلى تحليل فلسفة نيتشه تحليلاً منطقياً أن نقسمها إلى قسمين : الناحية السلبية ، وهى تنطوى على نقد الانسان الحالى ونقد إيمانه وغريزته ، والناحية الايجابية ، يبحث

فيها السوبرمان وعودة الخالدة ، وبهذا تبدو أفكار نيتشه مرصوفة ضمن نظام مذهبي لم تعرف به من قبل . لأن هذه الأفكار في الآونة الأخيرة لم تثبت على حال معهودة فهي سريعة التبدل وسريعة التنقل . ونيتشه نفسه لا يريد أن يكون فيلسوف مدرسة . . . لأن الحقيقة عنده لا خلاف فيها . على أنه لم يحجم عن مهاجمة الآراء التي يراها فاسدة بأدلة باهرة وحجة منطقية « إلا أن غريزتي ترينى في هذا الانسان أو في هذه الكتلة من الناس جماعة منحطة تدعو للاحتقار . . . وفي هذا المذهب أو في هذا الايمان جرثومة مرض . . . إنني أحاربهم وأكافحهم كما يكافح الخطر والمرض . فاذا صح أنني أنصر مذهباً حياً وخصوى ينصرون مذهباً فاسداً فالنصر لا ريب معاودى ، وفي الحالة المعاكسة لا يأتيني إلا الخسران ! وبما أنني لا أريد إلا شيئاً واحداً هو انتصار الحياة ، أراني أطرب بانكساراتي كما أطرب بانتصاراتي وكل ما وراء ذلك عندى سواء

أوليس من الغباوة أن نشيد مذهباً منطقياً لفلسفة نيتشه ضمن هذه البوادر ، شأن فلسفة « كانت » وشوبنهاور ، وليس للمنطق كبير شأن في هذه الفلسفة ؟ . على أن نيتشه لخاصح حدسي كان يأتي المسألة ويدرسها من جوانب مختلفة ، يتلقها ثم يدرسها ثم يفحصها حتى تحين اللحظة التي يطلق فيها حكمه الأخير . فاذا درست آثاره أثراً أثراً ألفيت أن المواضيع نفسها تطوى وتنشر ومن وراء ذلك عقل نيتشه العظيم . وإذا لم يأخذ نيتشه بالمنطق ونظامه الدقيق كما يأخذ به أرباب الفلسفة فليس معنى ذلك أن الرجل خلت أحكامه منها ، أو أن عقله لم يكن منطقياً . فالرجل حاد الفكر ، وفلسفته — من حيث المجموع — يربط بينها نظام منطق دقيق . ولكن صحته السيئة حالت بينه وبين ترتيبها ترتيباً فنياً ، فجاءت مقاطيع متفككة بأجزائها كاملة بكليتها . مقاطيع أودع فيها صاحبها كل نفسه وقلبه

(يتبع)

خليل هنداوى

اليوم يقول الخبير بالتجارة والصناعة :

إن كل المحاولات التي نجحت في ارتفاع أسعار المنسوجات القطنية أو الصوفية في أي بلد لا يمكن نجاحها في بلد كمصر توجد بها أمثال :

محلات

الفرنوانى اخوان

وخاصة بالقاهرة بالعتبة الخضراء

فانها تحافظ دائماً على مبدأ

حماية الوطنيين من الغلاء ...

مرض البول السكرى

نصيحة من مريض لله تعالى إلى المرضى

مرضت بالبول السكرى . وبالتجائى الى كل الطرق لم استفد سوى استفادة مؤقتة تزول بزول العلاج الى أن وفقنى الله تعالى الى بعض أنواع بذور للنباتات لم أجدها الا بحل عطارة

محمد طاهر الصاوى

بوكالة أبو زيد بالحمراوى بمصر . ولم يكلفنى ثمنها سوى مبلغ عشرة قروش صاغ وباستعمالها مدة اربعة أسابيع كانت النتيجة مدهشة جداً .....

فقد ظهر من نتيجة التحليل أن البول طبيعى بعد ان كان بنسبة ٥٥ في الألف لذلك اخذت على نفسى عند ان انصح بها المرضى واعتقد ان المحل المذكور لا يتأخر عن ارسالها لكل مريض خدمة للانسانية متى ارسل قيمة الثمن المذكور .

احمد ك . م .